الأحوال الخارقة ، وبهذا يطل طيُّ الأرض لبعض الروحانيين وتعلل خوارق كثيرة مما يحدث فى استحضار الأرواح لهذا العهد ومما يأتيه فقراء الهند ، ومما كان يصنعه « لاهوديني » الأمريكى إذ كانوا يغلّونه بالسلاسل والقيود ثم يرونه طليقاً ؛ ويحبسونه فى السجون المحصّنة يقوم عليها الحراس وتُمسكه فيها الأبواب والجدران ، ثم يجدونه فى بعض الفنادق

وليس للعقل أن ينكر شيئاً من هذا ونحوه فان تركيب الطبيعة ردٌّ عليه ، ونقصه هو ردٌّ على نفسه ، والمستحيل على الأعمى هو أيسر الممكنات على المبصر

فأنت ترى أن ذكر البراق والملك فى أساس قصة الاسراء والمعراج هو صلة القصة بالمعجزة وهو عينه صلتها بالبرهان العلمى ولو لم يكونا فيها لما كان لها تفسير

* * *

والقصة بعد ذلك تثبت أن هذا الوجود يرق وينكشف ويستضيء كلما سما الانسان بروحه ، ويغلظ ويتكاثف ويتحجب كلما نزل بها ، وهى من ناحية النبي صلى الله عليه وسلم قصةٌ تصفه بمظهره الكونى فى عظمته الخالدة كما رأى ذاته الكاملة فى ملكوت الله ، ومن ناحية كل مسلم من أتباعه ، هى كالدرس فى أن يكون لقلب المؤمن معراجٌ سماوىٌ فوق هذه الدنيا ليشهد ببصيرته أنوار الحق ، وجمالَ الخير ، وتجسُّد الأعمال الانسانية فى صورها الخالدة ؛ فيكون بتدبره القصة كأنما يصعد إلى السماء وينزل ؛ فيستريح إلى الحقائق الأساسية لهذه الحياة فيدفع عن نفسه بذلك وتعقُّد الأخيلة الذى هو أساس البلاء على الروح

ومتى استنار القلبُ كان حياً فى صاحبه وكان حياً فى الوجود كله . ومتى سلمت الحياة من تعقيد الخيال الفاسد لم يكن بين الانسان وبين الله إلا حياةٌ هى الحق والخير ، ولم يكن بينه وبين الناس إلا حياةٌ هى الرحمةُ والحب ما

(ملطيا) مصطفى صادق الرافعى

إلى خ . خ . د : من أجلك وصفت حبي أنا فى مقالات (الجمال الباقى) وفى السنة الماضية كتبت مقالة (سمو الحب) وهى فى الرسالة فارجع اليها ؛ ثم إن تعرض لك إبليس بعد أن تكون قرأت هذه المقالات وتدبرتها فاشكه الى أنصفك منه على شرط أن تشكو الى البوليس تلك المرأة التى يظهر لك بوجهها .... كما يؤخذ من كتابك الرافعى

١ ـ مدينـــة الزهراء

وحياتها الملوكية القصيرة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

قرأنا منذ حين فى بعض الأنباء الخارجية أن بعض الهيئات الأثرية فى اسبانيا تعنى بالبحث لاكتشاف معالم مدينة الزهراء الأندلسية ، وأنها قد وفقت بالفعل إلى اكتشاف بعض أسس قديمة فى ضاحية قرطبة يظن أنها من أسس قصر الزهراء ؛ وجدير بمثل هذا النبأ أن يثير شجناً فى نفس أولئك الذين يستعرضون تاريخ الأندلس ، وتاريخ قاعدتها الملوكية الشهيرة التى غاضت من صفحة الوجود حتى لم يبق من أطلالها اليوم ما يدل على مواقعها ومعالمها

كانت الزهراء من أعظم القواعد الملوكية التى عرفها التاريخ ، ولكنها لم تعمر طويلاً ولم تقم فى تاريخ الأندلس بدور ذى شأن ، ولم ينزلها سوى مؤسسها الناصر وولده الحكم وابنه المؤيد ، ولم تعمر كقاعدة ملوكية أكثر من نصف قرن ؛ ومن غرائب القدر أنه فى الوقت الذى أكملت فيه الزهراء فى عهد الحكم المستنصر ، وضعت أسس قاعدة ملوكية إسلامية جديدة قدر لها أن تؤدى فى تاريخ الاسلام وتاريخ الحضارة الاسلامية أعظم دور ؛ تلك هى القاهرة المعزية التى أخذت تتفتح عظمتها وبهاؤها فى نفس الوقت الذى ذوت فيه عظمة الزهراء وعصفت بها حوادث الدهر ؛ ولم تكن الزهراء أول قاعدة ملوكية فى الأندلس ، ولم تكن القاهرة أول قاعدة ملوكية اسلامية فى الشرق أو فى مصر ، فمن قبل أنشأ هشام بن عبد الملك رصافة الشام لتكون منزلاً ملوكياً لبني أمية ، وأنشأ المعتصم سامرا لتكون منزلاً له ولعقبه من بني العباس ، وأنشأ ابن طولون مدينة القطائع بمصر لتكون له ولعقبه قاعدة ملوكية إلى جانب الفسطاط عاصمة مصر الاسلامية ؛ وفى الأندلس أنشأ عبد الرحمن بن معاوية مؤسس ملك بنى أمية بالأندلس ضاحية ملوكية فى قرطبة سماها الرصافة تشبهاً برصافة جده هشام ؛ وسطعت كل من هذه القواعد

الملوكية الاسلامية حيناً من الدهر ، ولكنها اختفت جيماً من صفحة الوجود ، إلا القاهرة فانها استحالت إلى عاصمة الاسلام فى مصر ، وما زالت تقطع الأحقاب قوية راسخة ، تحمل حتى اليوم عمرها الألق أعظم ما تكون الحواضر العظيمة والمدن الغراء ضخامة وفخامة وبهاء

كان عصر عبد الرحمن الناصر أعظم عصور الاسلام فى الأندلس ، وكانت قرطبة عاصمة الأندلس ، قد بلغت يومئذ أوج العظمة والازدهار ، وأضحت تفوق بغداد ، منافستها فى الشرق ، بهاء وفخامة ؛ ولكن قرطبة كانت بمعاهدها ودورها وطرقها الزاخرة ، وسكانها الخمسمائة ألف ، تضيق بما يتطلبه ملك عظيم كملك الناصر من استكمال الفخامة الملوكية والقصور والرياض الشاسعة ؛ بل كانت تضيق بهذه الأبنية الملوكية منذ عهد عبد الرحمن الداخل حيث أنشأ الرصافة فى ظاهرها لتكون له منزلاً ومتنزهاً ملوكياً . وقد كان بناء القواعد الملوكية دائماً سنة العروش القوية الممتازة ؛ فلما بلغ الناصر لدين الله ما أراد من توطيد ملكه وسحق أعدائه فى الداخل والخارج ، عنى بأن يعرض آيات من ملكه الباذخ ، وثاب له رأى فى أن يقيم بجوار قرطبة ضاحية ملوكية رائعة ، فأنشأ مدينة الزهراء ؛ ولانشاء الزهراء قصة ، وربما كانت أسطورة على مثل الأساطير التى ترتبط بقيام المدن والمنشآت العظيمة . ولم تقل لنا الرواية إن الناصر رأى حلماً كالذى رآه قسطنطين فأوحى اليه بانشاء قسطنطينية ، ولكنها تقول لنا إن الذى أوحى إلى الناصر ببناء هذه الضاحية الملوكية هى جاريته وحظيته « الزهراء » ؛ وأنه ورث من إحدى جواريه مالاً كثيرا فأمر أن يخصص لافتداء الأسارى المسلمين ، ولكنه لم يجد من الأسارى من يفتدى ، فأوحت اليه « الزهراء » بأن ينشىء بهذا المال مدينة تسمى باسمها وتخصص لسكناها [1] . بيد أنا نفضل أن نرجع مشروع الناصر إلى بواعث الملك والسياسة ، وإلى عرض فخامة الملك والترفع بمظاهره وخصائصه عن المظاهر العامة لعاصمة مكتظة زاخرة

والظاهر أيضاً أن شغفاً خاصاً بالعمارة والبناء كان يحفز الناصر ويذكى رغبته فى إقامة هذه الضاحية الملوكية ، وقد كانت المنشآت والهياكل العظيمة على كر العصور مظهر الملك الباذخ والسلطان المؤثل ، وقد نسبت إلى الناصر فى ذلك أبيات قالها فى هذا المعنى :

هم الملوك إذا أرادوا ذكرها ... من بعدهم فبألسن البنيان
أو ما ترى الحرمين قد بقيا وكم ... ملك محاه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاظم شأنه ... أضحى يدل على عظيم الشان

وهكذا اختطت الزهراء فى ساحة تقع شمال غربى قرطبة على قيد أربعة أميال أو خمسة منها فى سفح جبل يسمى جبل العروس [2] ؛ وكان البدء فى بنائها فى فاتحة المحرم سنة خمس وعشرين وثلثمائة (نوفمبر سنة ٩٣٦ م) . وعهد الناصر الى ولده وولى عهده الحكم بالاشراف على بناء العاصمة الجديدة [3] ، وحشد لها أمهر المهندسين والصناع والفنانين من سائر الأنحاء ، ولا سيما من بغداد وقسطنطينية [4] ، وجلب اليها أصناف الرخام الأبيض والأخضر والوردى من المريه وريه ، ومن قرطاجنة افريقية وتونس ، ومن الشام وقسطنطينية [5] ؛ وكان يشتغل فى بنائها كل يوم من العمال والفعلة عشرة آلاف رجل ومن الدواب ألف وخمسمائة ، ويعد لها من الصخر النحوت نحو ستة آلاف صخرة فى اليوم ؛ وقدرت النفقة على بنائها بثلثمائة ألف دينار كل عام طوال عهد الناصر أعنى مدى خمسة وعشرين وعاماً ، هذا عدا ما أنفق عليها فى عهد الحكم [6] وابتنى الناصر فى حاضرته الجديدة قصراً منيف الذرى ، لم يدخر وسعاً فى تنميقه وزخرفته حتى غدا تحفة رائعة من الفخامة والجلال ، تحف به رياض وجنان ساحرة ؛ وانشأ فيه مجلساً ملوكياً جليلاً سمى بقصر الخلافة صنعت جدرانه من الرخام المزين بالذهب ، وفى كل جانب من جوانبه ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والآبنوس المرصع بالذهب والجوهر ، وزينت جوانبه بالتماثيل والصور البديعة وفى وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق ، وكانت الشمس إذا أشرقت على ذلك المجلس سطعت جوانبه بأضواء ساحرة [6] ؛

(١) نفح الطيب للمقرى (مصر) ج ١ ص ٢٤٥

(١) نزهة المشتاق للادريسى (طبع روما) ص ١٩٣ — والمسالك والممالك لابن حوقل (ص ٧٨) ويسمى ابن حوقل هذا الجبل بجبل بطليوس

(٢) البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٣٤٧ — نفح الطيب ج ١ ص ٣٦٦

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٦ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦

(٥) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥

(٦) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦ و ٢٤٧

وزود الناصر مقامه فى قصر الزهراء وهو الجناح الشرقى المعروف بالمؤنس ، بأنفس التحف والذخائر ، ونصب فيه الحوض الشهير الذى أهدى اليه من قيصر قسطنطينية ، وأقام عليه اثنى عشر تمثالاً من الذهب الأحمر المرصع بالجوهر ، وهى تمثل بعض الطيور والحيوانات وتقذف الماء من فيها الى الحوض[١] . وقد دون هذه الروايات والأوصاف العجيبة التى تشبه أوصاف قصور ألف ليلة المسحورة عن قصر الزهراء ، أكثر من مؤرخ معاصر وشاهد عيان ، وأجمعت الروايات على أنه لم يبن فى أمم الاسلام مثله فى الروعة والاناقة والبهاء[٢]

وأنشأ الناصر فى الزهراء أيضاً مسجداً عظيما تم بناؤه فى ثمانية وأربعين يوماً ، وكان يعمل فيه كل يوم ألف من العمال والصناع والفنانين ، وزود بعمد وقباب فخمة ومنبر رائع الصنع والزخرف ، فجاء آية فى الفخامة والجمال[٣] ، وانشئت بها مجالات فسيحة للوحوش متباعدة الساح ومسارح للطير مظللة بالشباك ، ودار عظيمة لصنع السلاح ، وأخرى لصنع الزخارف والحلى[٤] ؛ والخلاصة أن الناصر أراد أن يجعل من الزهراء قاعدة ملوكية حقة تجمع بين فخامة الملك الباذخ وسرية السلطان المؤثل ، وعناصر الادارة القوية المدنية والعسكرية

وفى إقامة هذه المنشآت الباذخة وبذل هذه النفقات الطائلة ما يستوقف النظر ، ويحمل على تأمل ذلك المدى المدهش الذى بلغته الدولة الأموية بالأندلس من القوة والضخامة والغنى ؛ وقد انتهت إلينا فى ذلك أرقام مدهشة ، منها أن جباية الأندلس بلغت لعهد الناصر من الكور والقرى خمسة آلاف ألف (أعنى خمسة آلاف مليون) وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ، ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار ؛ هذا عدا أخماس الغنائم العظيمة التى لا تحصى ؛ وقيل لنا إن الناصر خلف وقت وفاته فى بيوت الأموال خمسة آلاف ألف (خمسة آلاف مليون) دينار ؛ وكان يقسم الجباية من أجل النفقة إلى ثلاثة أثلاث ، ثلث لنفقة الجيش ، وثلث للبناء والمنشآت العامة ، وثلث يدخر للطوارئ[١] ، ولم يتردد المؤرخ الحديث فى قبول هذه الأرقام حتى أن دوزى يتقلها ، ويقدر أن الناصر ترك عند وفاته فى بيت المال عشرين مليوناً من الذهب[٢] ويقول لنا ابن حوقل الرحالة البغدادى الذى زار قرطبة والزهراء فى ذلك العصر إن الناصر وبنى حمدان ملوك حلب والجزيرة هم أغنى ملوك العالم فى ذلك العصر[٣] ؛ وهذه أرقام وروايات تشهد بضخامة الدولة الأموية وطائل غناها وبذخها فى عصر الناصر ، وتفسر لنا كيف استطاع الناصر إلى جانب حروبه وغزواته الكثيرة أن يضطلع باعباء هذه المنشآت العظيمة الباهرة ؟

واستمر العمل فى منشآت الزهراء طوال عهد الناصر أعنى حتى وفاته فى سنة خمسين وثلثمائة ؛ واستمر معظم عهد ابنه الحكم المستنصر ؛ واستغرق بذلك من عهد الخليفتين زهاء أربعين سنة[٤] . ولكنها غدت منزل الملك والخلافة ، مذ تم بناء القصر والمسجد ؛ وقد كان ذلك فيما يظهر فى سنة تسع وعشرين وثلثمائة ففى شعبان من هذا العام تم بناء المسجد ، وأقيمت به أول جمعة رسمية ؛ وكان الناصر قبل ذلك بنحو عامين قد اتخذ سمة الخلافة وتسمى بألقابها (سنة ٣٢٧ هـ) ، فكانت الزهراء بذلك أول منزل للخلافة الاسلامية بالأندلس

البحث بقية

(التقل بتصرف) محمد عبد الله عنان

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٦
(٢) » » ج ١ ص ٢٦٤ و ٢٦٥
(٣) » » ج ١ ص ٢٦٤
(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٧٧ — البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٧
(٢) Dozy : Hist. des Musulmans d'Espagne II p. 173
(٣) ابن حوقل فى المسالك والممالك ص ٧٧
(٤) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٤